سورةُ الطَّارِقِ

الجزء الأول

من الآية (1) إلى الآية (9)

أسماء السورة :

■ سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الطَّارِقِ) .

■ وسُمِّيَت أيضًا بـ (السَّماءِ والطَّارِقِ)؛ فعن جابِرِ بنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((إنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَقرَأُ في الظُّهرِ والعَصرِ بـ «السَّماءِ والطَّارِقِ»، و «السَّماءِ ذاتِ البُروجِ» ونَحْوِهما مِنَ السُّوَرِ)).

فضائل السورة وخصائصها:

■ كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ بها في الظُّهرِ والعَصرِ: كما في حديثِ جابِرِ بنِ سَمُرَةَ -رَضِيَ اللهُ عنه- المتقدِّمِ.

بيان المكي والمدني:

■ سورةُ الطَّارِقِ مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المفَسِّرينَ.

مقاصد السورة:

■ مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ: إقامةُ الأدِلَّةِ على قدرةِ الله تعالى، وإثباتُ أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِه سُبحانَه، وأنَّ العاقِبةَ للمُتَّقينَ.

موضوعات السورة:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

1- القَسَمُ على أنَّ كُلَّ نفْسٍ عليها حَفَظةٌ مِنَ الملائِكةِ.

2- إقامةُ الأدِلَّةِ على أنَّ اللهَ تعالى قادِرٌ على البَعثِ.

3- التَّنويهُ بشَأنِ القُرآنِ الكريمِ، وصِدقِ ما ذُكِرَ فيه من البَعثِ، وإثباتُ أنَّه مِن عندِ اللهِ تعالى.

4- تهديدُ المشرِكينَ، وتَثبيتُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ووَعْدُه بأنَّ العاقِبةَ للمُؤمِنينَ.

مضمون السورة

تعالج السورة أصول العقيدة الإسلامية، ويدور محورها حول البعث والنشور، وتتضمن البراهين والأدلة على قدرة الله تعالى على البعث، فمن خلق الإنسان من عدم قادر على إعادته.

1- ابتدأت بالقسم بالسماء ونجومها على أن كل إنسان قد وكل به من يحرسه ويتعهده من الملائكة الأبرار ، قال تعالى: (وَالسَّمَاء وَالطَّارِقِ {1} وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ {2} النَّجْمُ الثَّاقِبُ {3} إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ{4})

2- ساقت الأدلة على قدرة الله تعالى على إعادة الإنسان بعد فنائه ، قال تعالى: (فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ {5} خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ {6} يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ {7} إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ{8})

3- أخبرت عن هتك الأستار وكشف الأسرار يوم القيامة حيث لا معين ولا نصير للإنسان ، قال تعالى: (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ {9} فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ{10})

4- ختمت ببيان معجزة القرآن وصدقه و توعدت الكفرة بعذاب أليم ، قال تعالى: (وَالسَّمَاء ذَاتِ الرَّجْعِ {11} وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ {12} إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ {13} وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ {14} إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً {15} وَأَكِيدُ كَيْداً {16} فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً {17}) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (2) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (3) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4) فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (8) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (9) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ (10) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11) وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (12) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (13) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (14) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا (16) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (17) .

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ﴿1﴾

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ) أي: أُقسِمُ بالسَّماءِ، وأُقسِمُ بالطَّارِقِ الَّذي يَظهَرُ لَيلًا. موسوعة التفسير

قال قتادة وغيره: إنما سمي النجم طارقاً؛ لأنه إنما يرى بالليل، ويختفي بالنهار، ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح: (كانَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَكْرَهُ أنْ يَأْتِيَ الرَّجُلُ أهْلَهُ طُرُوقًا) البخاري ، أي: يأتيهم فجأة بالليل. خالد السبت

قال ابن عاشور: افتِتاحُ السُّورةِ بالقَسَمِ تَحقيقٌ لِما يُقسَمُ عليه، وتَشويقٌ إليه، ووَقَعَ القَسَمُ بمَخلوقَينِ عَظيمَينِ فيهما دَلالةٌ على عَظيمِ قُدرةِ خالِقِهما؛ هما: السَّماءُ، والنُّجومُ، أو نَجمٌ منها عَظيمٌ مَعروفٌ، أو ما يَبدو انقِضاضُه مِن الشُّهُبِ.

قال ابن عاشور: أي: أنَّ الشِّهابَ عندَ انقِضاضِه يُرى سائِرًا بسُرعةٍ، ثمَّ يَغيبُ عن النَّظرِ، فيَلوحُ كأنَّه استَقرَّ، فأَشبَهَ إسْراعَ السَّائِرِ لَيلًا ليَبلُغَ إلى الأحْياءِ المعمورةِ، فإذا بَلَغَها وَقَفَ سَيْرُه.

قال أبو السعود: تَنويهٌ بشَأنِ الطَّارِقِ إثْرَ تَفخيمِه بالإقْسامِ به، وتَنبيهٌ على أنَّ رِفعةَ قَدْرِه بحَيثُ لا يَنالُها إدراكُ الخَلْقِ، فلا بُدَّ مِن تَلَقِّيها مِن الخَلَّاقِ العَليمِ.

وقدْ أرادَ اللهُ عزَّ مِن قائلٍ أنْ يُقسِمَ بالنَّجمِ الثَّاقِبِ تَعظيمًا له، لِما عُرِفَ فيه مِن عَجيبِ القُدْرةِ ولَطيفِ الحِكمةِ، وأنْ يُنبِّهَ على ذلك، فجاءَ بما هو صِفةٌ مُشترَكةٌ بيْنَه وبيْنَ غَيرِه، وهو (الطَّارِقُ)، ثمَّ قال: وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ، ثمَّ فَسَّرَه بقَولِه: النَّجْمُ الثَّاقِبُ؛ إزالةً لذلك الإبْهامِ الحاصِلِ بالاستِفهامِ، وكُلُّ هذا إظْهارٌ لفَخامةِ شَأنِه، وإجْلالِ مَحلِّه. الدرر السنية

قال ابن القيم: قَلَّ أن تَجِيءَ سُورةٌ في القُرآنِ الكريمِ إلَّا وفيها ذِكرُ السَّماءِ؛ إمَّا إخبارًا عن عِظَمِها وسَعَتِها، وإمَّا إقسامًا بها، وإمَّا دُعاءً إلى النَّظَرِ فيها، وإمَّا إرشادًا للعِبادِ أن يَستَدِلُّوا بها على عَظَمةِ بانيها ورافِعِها، وإمَّا استِدلالًا منه سُبحانَه بخَلْقِها على ما أخبَرَ به مِنَ المعادِ والقيامةِ، وإمَّا استِدلالًا منه برُبوبيَّتِه لها على وَحدانيَّتِه، وأنَّه اللهُ الَّذي لا إلهَ إلَّا هو، وإمَّا استدلالًا منه بحُسْنِها واستِوائِها والْتِئامِ أجزائِها وعدَمِ الفُطورِ فيها على تَمامِ حِكمتِه وقُدرتِه، وكذلك ما فيها مِن الكَواكِبِ والشَّمسِ والقَمَرِ والعَجائبِ الَّتي تَتقاصَرُ عُقولُ البشَرِ عن قليلِها، فكم مِن قَسَمٍ في القُرآنِ بها؛ كقَولِه: وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ [البروج: 1] وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا [الشمس: 5] وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ [الطارق: 11] وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا [الشمس: 1] وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى [النجم: 1] فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ [التكوير: 15] ! فلم يُقسِمِ اللهُ تعالى في كتابِه بشَيءٍ مِن مخلوقاتِه أكثَرَ مِن السَّماءِ والنُّجومِ والشَّمسِ والقَمَرِ، وهو سُبحانَه يُقسِمُ بما يُقسِمُ به مِن مخلوقاتِه؛ لتضَمُّنِه الآياتِ والعَجائبَ الدَّالَّةَ عليه، وكلَّما كان أعظَمَ آيةً وأبلَغَ في الدَّلالةِ، كان إقسامُه به أكثَرَ مِن غَيرِه.

قال ابن عثيمين: في قَولِه تعالى: وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ سؤالٌ: كيف يُقْسِمُ اللهُ سُبحانَه وتعالى بالمخلوقاتِ، مع أنَّ القَسَمَ بالمخلوقاتِ شِرْكٌ؛ لِقَولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن حَلَفَ بغيرِ اللهِ فقد كَفَرَ أو أَشْرَكَ)) ، وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((مَن كان حالِفًا فلْيَحْلِفْ باللهِ أو لِيَصْمُتْ)) ؟ فلا يجوزُ الحَلِفُ بغيرِ اللهِ؛ لا بالأنبياءِ، ولا بالملائكةِ، ولا بالكَعْبةِ، ولا بالوطَنِ، ولا بأيِّ شيءٍ مِن المخلوقاتِ! الجوابُ: أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى له أنْ يُقْسِمَ بما شاء مِن خَلْقِه، وإقسامُه بما يُقْسِمُ به مِن خَلْقِه يدُلُّ على عَظَمةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ لأنَّ عِظَمَ المخلوقِ يدُلُّ على عِظَمِ الخالقِ.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ ﴿2﴾

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ) أي: وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- بالطَّارِقِ الَّذي عظَّمْتُه بالقَسَمِ به. موسوعة التفسير

﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ ﴿3﴾

(النَّجْمُ الثَّاقِبُ) أي: هو النَّجْمُ المتوقِّدُ النَّافِذُ. موسوعة التفسير

معنى: الثَّاقِبُ: المضيءُ المنيرُ، الَّذي يتوقَّدُ ضياؤُه ويَتوهَّجُ.

قال السعدي: أي: المضيء، الذي يثقب نوره، فيخرق السماوات [فينفذ حتى يرى في الأرض]. وقد قيل: إنه « زحل » الذي يخرق السماوات السبع وينفذ فيها فيرى منها. وسمي طارقًا، لأنه يطرق ليلا. والصحيح أنه اسم جنس يشمل سائر النجوم الثواقب.

الحكمة التي من أجلها خلق النجوم: ❶-تزيين السماء ❷-ورجم الشياطين ❸-وهداية الناس لطرقهم في البر والبحر.

فالعلوم المتعلّقة بالنجوم تنقسم إلى قسمين: قسم جائز وقسم محرّم شرعاً :

❶فأمّا القسم الجائز ما يسمى بعلم التسيير: "وهو الَّذي يُعلم به الحساب، وتُعلم فيه منازل الزِّراعة، ويُعرف به الطَّريق في ظلمات البرّ والبحر، ويُعرف به الأوقات" ومن الأمثلة على ذلك أيضاً الاستدلال بالنجوم على أوقات البذر وغرس الأشجار، والاستدلال على الجهات كالاستدال على جهة القبلة وكذلك تمييز الفصول الأربعة وتمييز الأوقات بشكل عام، وكذلك تمييز مواقع البلدان والمياه وغير ذلك...

❷وأمّا القسم المحرم شرعاً من علوم النجوم، فهو ما يسمى بعلم التأثير: "والمراد به الاستدلال بالأحوال الفلكيَّه على الحوادث الأرضيَّة" ومن الأمثلة على ذلك ما يسمى بعلم التنجيم، وهو ادّعاء لعلم الغيب، فمن أهل هذا العلم من يدعي أن الأحوال الفلكية تؤثر بالحوادث الأرضية بذاتها وهذا شرك وكفر بالله عز وجل، ومنهم من يزعم أنها إنما تؤثر في الحوادث الأرضية بمشيئة الله وقدرته وهذا أيضاً حرام وباطل ولا دليل عليه، وهو من الادعاء بعلم الغيب، قال تعالى في سورة النمل: ((قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إلا اللَّهُ)) وقال سبحانه((وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ))، وقال رسول الله -ρ- : ((مَن أتى عرَّافًا أو كاهنًا فصدَّقَه بما يقولُ، فقد كَفَرَ بما أُنْزِلَ على محمَّدٍ ρ)) صحيح الجامع، وقال ρ: ((مَن أتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عن شيءٍ، لَمْ تُقْبَلْ له صَلاةٌ أرْبَعِينَ لَيْلَةً)) صحيح مسلم

يقول الشيخ صالح آل الشيخ من قرأ الصفحة التي فيها الأبراج وهو يعلم برجه الذي ولد فيه، أو يعلم البرج الذي يناسبه، وقرأ ما فيه فكأنه سأل كاهنا، فلا تقبل صلاته أربعين يوماً، فإن كان صدق بما في تلك البروج فقد كفر بما أنزل على محمد ρ.

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ ﴿4﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: لَمَّا ذَكَر المقسَمَ به؛ أتْبَعَه بذِكرِ المقسَمِ عليه

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) أي: ما مِن إنسانٍ إلَّا وعليه ملائِكةٌ حَفَظةٌ. موسوعة التفسير

قال السعدي: والمقسم عليه قوله: (إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) يحفظ عليها أعمالها الصالحة والسيئة، وستجازى بعملها المحفوظ عليها.

قال ابن عاشور: وقدْ جُعِلَ جَوابُ القَسَمِ هذا كِنايةً عن المقْصودِ، وهو: إثْباتُ البَعثِ؛ فهو كالدَّليلِ على إثْباتِه؛ فإنَّ إقامةَ الحافِظِ تَستَلْزِمُ شَيئًا يَحفَظُه، وهو الأعمالُ خَيرُها وشَرُّها -وذلك على قولٍ-، وذلك يَستَلْزِمُ إرادةَ المحاسَبةِ عليها، والجَزاءِ بما تَقتَضيه جَزاءً مُؤخَّرًا بعدَ الحياةِ الدُّنيا؛ لئلَّا تَذهَبَ أعمالُ العامِلينَ سُدًى، وذلك يَستَلْزِمُ أنَّ الجَزاءَ مُؤخَّرٌ إلى ما بعْدَ هذه الحياةِ؛ إذ المشاهَدُ تَخلُّفُ الجَزاءِ في هذه الحياةِ بكَثْرةٍ، فلو أُهمِلَ الجَزاءُ لَكان إهْمالُه مُنافيًا لحِكْمةِ الإلَهِ الحَكيمِ مُبدِعِ هذا الكَونِ، وهذا الجَزاءُ المؤخَّرُ يَستَلْزِمُ إعادةَ حياةٍ للذَّواتِ الصَّادِرةِ منها الأعمالُ. الدرر السنية

(إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) قال البِقاعي: (المرادُ به الجِنسُ مِنَ الملائِكةِ؛ فبَعضُهم لحِفْظِها مِن الآفاتِ، وبَعضُهم لحِفْظِها مِنَ الوَساوسِ، وبَعضُهم لحِفظِ أعمالِها وإحصائِها بالكِتابةِ، وبَعضُهم لحِفظِ ما كُتِبَ لها مِن رِزقٍ وأجَلٍ، وشَقاوةٍ أو سعادةٍ، ومَشيٍ ونِكاحٍ، وسَفَرٍ وإقامةٍ، فلا يتعَدَّى شيئًا مِن ذلك...، فإنْ قُلتَ: إنَّ الحافِظَ الملائكةُ، صَدَقْتَ، وإنْ قُلْتَ: إنَّه اللهُ، صدَقْتَ؛ لأنَّه الآمِرُ لهم والمقَدِّرُ على الحِفظِ، والحافِظُ لهم مِنَ الوهمِ والزَّيغِ، فهو الحافِظُ الحقيقيُّ).

وبين الله سبحانه وتعالى مهمة هذا الحافظ بقوله: { وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ} [الانفطار: 10 -12].

هؤلاء الحفظة يحفظون على الإنسان عمله، ما له وما عليه، ويجده يوم القيامة كتاباً منشوراً يقال له: {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء: 14].

قال ابن عثيمين: هؤلاء الحفظة يكتبون ما يقوم به الإنسان من قول، وما يقوم به من فعل، سواء كان ظاهراً كأقوال اللسان، وأعمال الجوارح، أو باطناً حتى ما في القلب مما يعتقده الإنسان فإنه يكتب عليه لقوله تعالى: { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } [ق: 16- 18]. هذا الحافظ يحفظ عمل بني آدم.

وقال الله ρ: "لا يَسْتَقِيمُ إِيمانُ عبدٍ حتى يَسْتَقِيمَ قلبُهُ، ولا يَسْتَقِيمُ قلبُهُ حتى يَسْتَقِيمَ لسانُهُ". صحيح الترغيب

قالρ:"إذا أصبحَ ابنُ آدمَ فإنَّ الأعضاءَ كلَّها تُكفِّرُ اللِّسانَ[(تذل له وتخضع)] فتقولُ اتَّقِ اللَّهَ فينا فإنَّما نحنُ بِكَ فإن استقمتَ استقمنا وإن اعوججتَ اعوججنا". صحيح الترمذي

قال ﷺ : "رَحِمَ اللهُ عبدًا قالَ خيرًا فَغَنِمَ أو سَكَتَ عَن سُوءٍ فسَلِمَ". صحيحُ الجامع

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب:70-71].

أي: كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات، كما قال تعالى:(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) [الرعد:11] .

قال تعالى: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ)[الانعام:61]

هؤلاء الملائكة يحفظون الإنسان حتى إذا جاء القدر خُلي عنه، يعني: يحفظونه من الشياطين أن تتخطفه، يحفظونه من العوارض والأخطار والآفات حتى يأتي قدر الله النافذ إلى هذا الإنسان فيُخلّى عنه عندئذ. خالد السبت

✍الملائكة التي تتعاقب على الإنسان في الليل والنهار ، وذلك في قوله تعالى : (وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) .

وفي قوله ρ: "يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ ومَلَائِكَةٌ بالنَّهَارِ، ويَجْتَمِعُونَ في صَلَاةِ الفَجْرِ وصَلَاةِ العَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وهو أعْلَمُ بِهِمْ: كيفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فيَقولونَ: تَرَكْنَاهُمْ وهُمْ يُصَلُّونَ، وأَتَيْنَاهُمْ وهُمْ يُصَلُّونَ" . صحيح البخاري

■والْحَفَظة ، لقوله تعالى : (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) .

■ والْكَتَبَة ، الذين يكتبون الحسنات والسيئات ، لقوله تعالى : (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ).

عن ابن عباس عن رسول الله ρ قال: "ما منْ آدميٍّ إلا في رأسِهِ حكمةٌ بيدِ ملكٍ، فإذا تواضعَ قيلَ للملكِ : ارفعْ حكمتَه، وإذا تكبرَ قيلَ للملكِ : ضعْ حكمتَه". الجامع الصغير

🗀 الملائكة الكرام يصحبون بني آدم من يوم تكوينهم في بطون أمهاتهم حتى نزع أرواحهم من أجسادهم يوم موتهم ، وهم أيضاً يصحبونهم في قبورهم وفي الآخرة .

❶أما صحبتهم له في الدنيا فتكون كما يلي :

أولا : يقومون عليه عند خلقه .

عن أنس عن النبي ρقال : "وَكَّلَ اللَّهُ بالرَّحِمِ مَلَكًا، فيَقولُ: أيْ رَبِّ نُطْفَةٌ، أيْ رَبِّ عَلَقَةٌ، أيْ رَبِّ مُضْغَةٌ، فإذا أرادَ اللَّهُ أنْ يَقْضِيَ خَلْقَها، قالَ: أيْ رَبِّ، أذَكَرٌ أمْ أُنْثَى، أشَقِيٌّ أمْ سَعِيدٌ، فَما الرِّزْقُ، فَما الأجَلُ، فيُكْتَبُ كَذلكَ في بَطْنِ أُمِّهِ". صحيح البخاري

ثانيا : حراستهم لابن آدم .

قال تعالى :(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ)[الرعد: 11] .

✍وقد بين ترجمان القرآن ابن عباس أن المعقبات مِن الله هم الملائكة جعلهم الله ليحفظوا الإنسان من أمامه ومن ورائه ، فإذا جاء قدر الله – الذي قدّر عليه أن يقع به من حادث ومصاب ونحوه – تخلوا عنه.

🗐وقال مجاهد : ما من عبد إلا له ملَك موكل بحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام ، فما منها شيء يأتيه إلا قال له الملك : وراءك ، إلا شيء أذن الله فيه فيصيبه.

فالحفظة الذي يرسلهم الله يحفظون العبد حتى يأتي أجله المقدر له .

ثالثا : الملائكة الذين يكتبون الحسنات والسيئات .

🡸ما من أحد من الناس إلا وله ملكان يكتبان أعماله من الخير والشر من صغير أو كبير ، قال تعالى لقوله تعالى: { إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } [ق: 16- 18]. ويكتب صاحب اليمين الحسنات وصاحب الشمال يكتب السيئات .

عن أبي أمامة : أن رسول الله ρ قال : "إِنَّ صَاحِبَ الشِّمَالِ لَيَرْفَعُ الْقَلَمَ سِتَّ سَاعَاتٍ عَنِ الْعَبْدِ الْمُسْلِمِ الْمُخْطِئِ أَوِ الْمُسِيءِ، فَإِنْ نَدِمَ وَاسْتَغْفَرَ اللهَ مِنْهَا أَلْقَاهَا، وَإِلَّا كُتِبَتْ وَاحِدَةً". السلسلة الصحيحة

وإذا علمنا هذا تبين أن عدد الذين يصحبون ابن آدم بعد ولادته : أربعة ملائكة .

قال ابن كثير رحمه الله : وقوله : { له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله } أي : للعبد ملائكة يتعاقبون عليه حرس بالليل وحرس بالنهار ، يحفظونه من الأسواء والحادثات ، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر ملائكة بالليل وملائكة بالنهار . فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال صاحب اليمين يكتب الحسنات وصاحب الشمال يكتب السيئات . وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه ، واحد من ورائه وآخر من قدامه . فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل.

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ ﴿5﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: لَمَّا ذكَرَ أنَّ كُلَّ نفْسٍ عليها حافِظٌ؛ أتْبَعَ ذلك بوَصيَّةِ الإنسانِ بالنَّظَرِ في أوَّلِ أمرِه ونَشأتِه الأُولى؛ حتَّى يَعلَمَ أنَّ مَن أنشأه قادِرٌ على إعادتِه وجزائِه، فيَعمَلَ لذلك، ولا يُملِيَ على حافِظِه إلَّا ما يَسُرُّه في عاقِبتِه

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ) أي: فلْيَنظُرِ الإنسانُ مُتفَكِّرًا مِن أيِّ شَيءٍ خلَقه ربُّه سُبحانَه. موسوعة التفسير

قال ابن القيّم: (فلْيَنظُرْ نظَرَ الفِكرِ والاسْتِدلالِ).

قال الشنقيطي: تنبيهٌ له على حَقارةِ ما خُلِقَ منه؛ لِيَعرِفَ قَدْرَه، ويَترُكَ التَّكبُّرَ والعُتُوَّ، ويدُلُّ لذلك قَولُه تعالى: قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ [عبس: 17-18] .

فالآيةُ فيها عِظَةٌ للإنسانِ، وتنبيهٌ له على معرفةِ خَلْقِه، وضَعْفِ تركيبِه، وعلى ما يُزيلُ به دواعيَ الكِبْرِ والنَّخوةِ عن نفْسِه، فلا يُنازِعُ فيها خالقَه الَّذي لا يُشارِكُه في الكبرياءِ والعَظَمةِ، ولا يَستطيلُ به على المخلوقينَ؛ إذْ مَن يكونُ هذا بَدْءَ خَلْقِه، ثُمَّ يصيرُ آخِرُه إلى البِلَى والرُّفاتِ إلى أنْ يُجَدِّدَ اللهُ خَلْقَه بالنُّشُورِ يومَ يُحيي العِظامَ النَّخِرةَ والأجسامَ البالية: جديرٌ بألَّا يُفارِقَه الذُّلُّ والاستِكانةُ في جميعِ الأحوالِ. (النكت الدالة على البيان)) للقصاب.

﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾ ﴿6﴾

(خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ) أي: خُلِقَ مِن مَنِيٍّ مُنصَبٍّ يخرُجُ دَفْقًا. موسوعة التفسير

وقال ابنُ عاشور: (معنى: دَافِقٍ خارِجٌ بقُوَّةٍ وسُرعةٍ، والأشهَرُ أنَّه يقالُ على نُطفةِ الرَّجُلِ).

ويقرِّرُ بعضُ المعاصرينَ أنَّ الماءَ الدَّافِقَ الَّذي يُخلَقُ منه الإنسانُ يُقصَدُ به ماءُ كلٍّ مِن الرَّجُلِ والمرأةِ، وسُمِّيَ دافِقًا؛ لأنَّه يَخرُجُ مِن مصدرِه متدَفِّقًا، فماءُ الرَّجُلِ يخرُجُ مِن خُصْيَتَيْه ويحمِلُ الحيواناتِ المَنَويَّةَ، وماءُ المرأةِ هو الماءُ المحيطُ بالبُوَيْضةِ في داخلِ حُوَيْصِلةٍ معروفةٍ باسم (حويصلة جراف) بالمِبْيَضِ، فإذا انفجرَتْ هذه الحُوَيْصِلةُ تدَفَّقَ هذا الماءُ لِيَدفَعَ بالبُوَيْضةِ إلى بُوقِ قناةِ الرَّحِمِ حتَّى تَلتقي بالحَيَوانِ المَنَويِّ، ويخرُجُ هذا الماءُ مِن المرأةِ مرَّةً واحدةً في الشَّهرِ.

قال ابن عثيمين: في قَولِه تعالى: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ سؤالٌ عن وجهِ الجَمعِ مع قولِه تعالى: مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى [طه: 55] في أنَّ أصلَ بني آدمَ مِن الطِّينِ، والطِّينُ مِن الأرضِ. الجوابُ: أنَّ الخَلْقَ هو مِن الطِّينِ باعتبارِ الأصلِ، وأنَّ الماءَ الدَّافِقَ هو باعتبارِ الفَرعِ المتولِّدِ مِن الأصلِ.

كما قال تعالى: خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ [النحل: 4] .

﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ ﴿7﴾

(يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ) أي: يَخرُجُ هذا الماءُ -الَّذي خَلَق اللهُ منه الإنسانَ- مِن بيْنِ الصُّلبِ وعِظامِ الصَّدْرِ. موسوعة التفسير

قال ابنُ عبَّاسٍ: إنَّ المرادَ: صُلْبُ الرَّجُلِ وتَرائبُ المرأةِ.

﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ ﴿8﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال الرازي: لَمَّا قَدَر الصَّانِعُ على جَمعِ تلك الأجزاءِ المتفَرِّقةِ حتَّى خَلَق منها إنسانًا سَوِيًّا، وَجَب أن يُقالَ: إنَّه بَعْدَ مَوتِه وتفَرُّقِ أجزائِه لا بُدَّ أن يَقدِرَ الصَّانِعُ على جَمعِ تلك الأجزاءِ، وجَعْلِها خَلْقًا سَوِيًّا كما كان أوَّلًا؛ ولهذا السِّرِّ لَمَّا بَيَّن تعالى دَلالتَه على المبدَأِ؛ فَرَّع عليه أيضًا دَلالتَه على صِحَّةِ المعادِ؛ فقال تعالى

(إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) أي: إنَّ اللهَ الخالِقَ قادِرٌ على رَجْعِ الإنسانِ حَيًّا بَعْدَ مَوتِه. موسوعة التفسير

قال السعدي: فالذي أوجد الإنسان من ماء دافق، يخرج من هذا الموضع الصعب، قادر على رجعه في الآخرة، وإعادته للبعث، والنشور [والجزاء].

﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ ﴿9﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال الرازي: لَمَّا أقام سُبحانَه الدَّليلَ على صِحَّةِ القَولِ بالبَعْثِ والقيامةِ؛ وَصَف حالَ الإنسانِ في ذلك اليومِ، فقال تعالى

(يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) أي: يَومَ تَظهَرُ سَرائِرُ النَّاسِ، فيَتبَيَّنُ ما كانوا يُخفونَه مِن خَيرٍ وشَرٍّ، ويُجازَونَ على ما يَستَحِقُّونَه مِن ثَوابٍ وعِقابٍ. موسوعة التفسير

السَّرائرُ: ما يُسِرُّه الإنسانُ ويُخفيه مِن نِيَّاتِه وعقائِدِه.

قال السعدي: أي: تختبر سرائر الصدور، ويظهر ما كان في القلوب من خير وشر على صفحات الوجوه قال تعالى: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ، ففي الدنيا تنكتم كثير من الأمور، ولا تظهر عيانًا للناس، وأما في القيامة، فيظهر بر الأبرار، وفجور الفجار، وتصير الأمور علانية.

قال ابن العثيمين: أنَّ المهِمَّ العنايةُ بصَلاحِ القَلبِ؛ لأنَّه هو الَّذي عليه مَدارُ الحِسابِ يومَ القيامةِ، أي تختبر السرائر، وهي القلوب، فإن الحساب يوم القيامة على ما في القلوب، والحساب في الدنيا على ما في الجوارح.

قال ابن القيم: لطيفةٌ في التَّعبيرِ عن الأعمالِ بالسِّرِّ، وهي أنَّ الأعمالَ نتائجُ السَّرائرِ الباطنةِ، فمَن كانت سَريرتُه صالحةً كان عمَلُه صالحًا؛ فتبدو سريرتُه على وجهِه نورًا وإشراقًا وحياءً، ومَن كانت سَريرتُه فاسدةً كان عمَلُه تابعًا لسَريرتِه، ولا اعتبارَ بصورتِه؛ فتبدو سريرتُه على وجهِه سَوادًا وظُلمةً وشَيْنًا، وإنْ كان الَّذي يبدو عليه في الدُّنيا إنَّما هو عَمَلُه لا سَريرتُه، فيومَ القيامةِ تبدو عليه سريرتُه، ويكونُ الحُكْمُ والظُّهورُ لها.

(قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ)[ال عمران:30].

ولهذا يجب علينا العناية بعمل القلب أكثر من العناية بعمل الجوارح ، عمل الجوارح علامة ظاهرة ، لكن عمل القلب هو الذي عليه المدار، ولهذا أخبر النبي عليه الصلاة والسلام عن الخوارج يخاطب الصحابة يقول : « يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مع صَلَاتِهِمْ، وصِيَامَهُ مع صِيَامِهِمْ -يعني أنهم يجتهدون في الأعمال الظاهرة لكن قلوبهم خالية والعياذ بالله- يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ». البخاري

قال الحسن البصري رحمه الله: (والله ما سبقهم أبو بكر بصلاة ولا صوم ، وإنما سبقهم بما وقر في قلبه من الإيمان).

قال ابن عثيمين رحمه الله: والإيمان إذا وقر في القلب حمل الإنسان على العمل ، لكن العمل الظاهر قد لا يحمل الإنسان على إصلاح قلبه ، فعلينا أن نعتني بقلوبنا وأعمالها ، وعقائدها ، واتجاهاتها ، وإصلاحها ، وتخليصها من شوائب الشرك والبدع ، والحقد والبغضاء ، وكراهة ما أنزل الله على رسوله وكراهة الصحابة رضي الله عنهم ، وغير ذلك مما يجب تنزيه القلب عنه .